أبو تمام الطائي
١٨٨ ـ ٢٣١ هـ

اسمه ومولده :

هو ابو تمام حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس ، وتمام ابنه ، ولد بقرية « جاسم » على يمين الطريق الممتد بين دمشق وطبرية . وقد اختلف المؤرخون في السنة التي ولد فيها ، ولعل سنة ١٨٨ للهجرة أقرب الى الصحة ، لأن اكثرهم يرجحون هذا التاريخ ومنهم ابنة تمام ، فيقول : « ولد ابي سنة ثمانٍ وثمانين ومئة ، ومات سنة احدى وثلاثين ومئتين »(٤٠٩)

نسبه :

انّ الخلاف في نسبه وأصله كبير ايضاً ، فقد ذكر ابو الفرج الاصبهاني ان أبا تمام من نفس طيئ صليبةً ، واسمه حبيب بن أوس ،(٤١٠) وعدّد ابن خلكان جدوده وأوصله الى يعرب بن قحطان ،(٤١١) وقيل : انّ أباه كان رجلًا نصرانياً يدعى تدوسُ فحرّفه ابو تمام الى أوس وانتسب الى طيء ، وذهب مرجليوث وطه حسين الى أنه تيودوس ، وهو اسم يوناني ، وكان هذا نصرانياً يبيع الخمر في دمشق وأن ابنه نشأ في حجرة نشأة نصرانية ، ولكنه أسلم وترك دمشق وذهب الى مصر فأقام فيها فترة .(٤١٢) وانكر البهبيتي نصرانية ابيه وقال : « دعك من نصرانية ابيه ، فما كانت الا افتراء خصوم ابي تمام » .(٤١٣)

ان نصرانية أبيه ـ انْ صحّتْ ـ لاتنفيه من العرب ولا من طيء ، فقد كانت النصرانية شائعة من قديم فيها ، ويشهد لذلك فخره المضطرم بطيء ، وانه اختار منها اكثر ممدوحيه ، ونوّه تنويهاً عظيماً بمن سجلوا لها في عصره امجاداً حربيةً ، مما يدل على أنه طائي وعربي أصيل .(٤١٤)

---

(٤٠٩) نزهة الألباء في طبقات الادباء ص ١٠٨ ، وينظر اخبار ابي تمام للصولي ص٢٧٣ ، وتهذيب التاريخ الكبير لابن عساكر ٤ : ١٨ ، ٣٦ .

(٤١٠) الاغاني ٩ : ٢٨٣ صليبة : اي ليس من مواليها ولا حلفائها

(٤١١) وفيات الاعيان ٢ : ١١ .

(٤١٢) من حديث الشعر والنثر ص ٩٢ ، وتنظر مادة ابي تمام في دائرة المعارف الاسلامية

(٤١٣) ابو تمام الطائي ص ٦٢ .

(٤١٤) ينظر العصر العباسي الاول للدكتور شوقي ضيف ص ٣٦٩ .

سيرته :

نشأ أبو تمام في دمشق بعد انتقاله اليها مع أبيه ، واشتغل في مطلع حياته عاملاً صغيراً في حانوت للحياكة . وفي اثناء ذلك كان يتردد الى حلقات الدرس ويسمع مايدور على أفواه العلماء والادباء من علوم اسلامية اصيلة او وافدة مثل الفلسفة اليونانية . وتنقل كثيراً في سبيل التعلّم ، وكانت رحلته الاولى الى حمص ، حيث أفاد من الشاعرين عتبة بن عبدالكريم الطائي ، وعبدالسلام بن رَغْبان المعروف بديك الجن ، وانتفع بما عندهما من معرفة بصنعة الشعر . وبعدها شدّ رحاله الى مصر ونزل المسجد الجامع في الفسطاط ليكسب معاشاً وينهل علماً . وأسعفته قدرته على قرض الشعر الجيد منذ الوهلة الاولى وتسخيره للمدح كما يفعل كثير من الشعراء ، فنظم قصيدة في مدح صاحب الشرطة والخراج عيّاش بن لهيعة الحضرميّ ، منها قوله :(٤١٥)

وما ضيقُ أقطارِ البلادِ أضافني إليكَ ولكن مذهبي فيكَ مذهبي(٤١٦)
وأنت بمصرٍ غايتي وقرابتي بها وبنو الآباءِ فيها بنو أبي

وفي رواية للصولي ان أبا تمام قال عن هذه القصيدة انها « أول شعر قلته ... ومدحت به عياش بن لهيعة فأعطاني خمسة آلاف درهم »(٤١٧) ولا تتّسق هذه الروايه مع عتاب أبي تمام للممدوح فيما بعد ولامع هجائه له . ومع ذلك قد يحصل أن يمدح شاعر شخصاً ثم ينقلب عليه فيهجوه كما فعل مسلم بن الوليد مع يزيد بن مزيد الشيباني(٤١٨)

عاد الى موطنه دمشق سنة ٢١٤ للهجرة بعد مكوثه في مصر اكثر من خمسة أعوام ، استوعب فيها علوماً كثيرة ، ووقف على كتبٍ جمة . وكان المأمون آنذاك يتجول في الشام بعد رجوعه من حرب الروم والانتصار عليهم ، وقد مدحه ابو تمام بقصيدة طويلة ، منها قوله :(٤١٩)

---

(٤١٥) ديوانه ١ : ١٥٤

(٤١٦) يقول : لم يلجئني ضيق البلاد عليّ ، وكساد بضاعتي عند الناس ، ولكن مذهبي أني أسأل الله الكريم .

(٤١٧) أخبار أبي تمام ص ١٢١ .

(٤١٨) الاغاني ١٩ : ٣٩ .

(٤١٩) ديوانه ٣ : ١٥٦

يا أيها الملكُ الهمامُ وعدلُهُ ملكٌ عليه في القضاءِ هُمامُ
أوريتَ زندَ عزائمٍ تحت الدُجى أسرجنَ فكرَكَ والبلادُ ظلامُ
فنهضتَ تسحبُ ذيلَ جيشٍ ساقهُ حُسنُ اليقينِ وقادهُ الاقدامُ
حتى نقضتَ الروعَ منكَ بوقعةٍ شنعاءَ ليس لنقضِها إبرامُ

لم يظفر أبو تمام عنده بما كان يحلم به أو يتأمله . وراح ينظم شعراً في رثاء بطل من طيء، هو محمد بن حميد الطائي الذي كافح بابك الخرمي كفاحاً مريراً وخانه القدر فسقط في ميدان النضال . وأخذ هذا الشعر يحتلّ مكانةً ممتازةً في الأوساط الادبية ولا سيما قصيدته التي يقول في مطلعها :(٤٣٠)

كذا فليجلّ الخطبُ وليفدح الأمرُ فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عُذرُ

وكان يحبّ التنقّل والتطواف وانتجاع الأقاليم والثغور في العالم الاسلامي الذي عدّه وطناً واحداً له . وقد صورَ هذه الحالة أصدق تصوير في ابياته الاولى من قصيدته التي مدح بها محمد بن حسّان الضبي :(٤٣١)

ما اليوم أوّلَ توديعٍ ولا الثاني البينُ أكثرُ من شوقي وأحزاني
خليفةُ الخضرِ مَن يربعْ على وطنٍ في بلدةٍ فظهورُ العيسِ أوطاني
بالشامِ أهلي وبغداد الهوى وأنا بالرقمتينِ وبالفسطاط اخواني
وما أظنُّ النوى ترضى بما صنعت حتى تُطوّحَ بي أقصى خراسانِ؛(٤٣٢)

انه على سفرٍ دائم . وترحالٍ قائم . على ظهور الابل : يطوف البلاد وكأنه خليفة الخضر . فأهله في الشام . وهواه في بغداد . وهو بالرقمتين . واخوانه بمصر . وقد يطرح به النوى أقصى خراسان . هكذا حقاً كان أبو تمام . فتراه يرتحل الى الموصل ومنها الى ارمينية . وينال عطاءً وافراً من واليها خالد بن يزيد الشيباني . ثم يقفل راجعاً الى بغداد بعد وفاة المأمون سنة ٢١٨ للهجرة ويجد حُظوةً عند المعتصم وكبار رجال الدولة . منهم محمد بن يوسف الثغري القائد الذي هزم بابك الخرمي ثم قصد خراسان واستقبله واليها عبدالله بن طاهر استقبالاً حافلاً ومن معه من الكتاب والشعراء . وأنشد أمامه قصيدة قوية جزلة المعاني . مطلعها :(٤٣٣)

---

(٤٣٠) ديوانه ٤ : ٧٩

(٤٣١) ديوانه ٢ : ٢٠٨

(٤٣٢) وهناك رواية ثانية : حتى تسافر بي . وثالثة : حتى تفارقه بي .

(٤٣٣) الاغاني ١٩ : ٢٨٩ . وينظر الديوان ١ : ٢١٩ .

هـنّ عوادي يوسـفٍ وصواحِـبُـهْ فعَزْمًا فقِدْمًا أدرَكَ السّؤْلَ طالِبُهْ

فلما فرغ منها نثر عليه ألف دينار .

وقبل عودته الى العراق ، عرّج على همدان ، واستضافه أبو الوفاء بن سلمة أحد أدباء البلد وسَراتها ، وصادف سقوط الثلوج بكثافة في هذا الاقليم ، فأعاقه عن السفر ، وجلس في مكتبة أبي الوفاء وأكبّ على الكتب التي تحويها هذه المكتبة وصنّف خمسة مجاميع في الشعر منها الحماسة ، والوحشيات ، كما يقول أكثر الدارسين .(٤٢٤) واننا لا نتفق مع هذا الرأي ، لان المرء مهما أوتي من قدرة وقوة لا يستطيع ان يقرأ في مدة ثلاثة شهور كل الشعر العربي ويختار منه خمسة كتب ، واننا نذهب الى ماذهب اليه الآمدي بأن أبا تمام « كان مشتهراً بالشعر ، مشغوفاً به ، مشغولاً مدّة عمره بتخيره ودراسته »(٤٢٥) وربما كانت مدة اقامته مكملة لعمله السابق الذي خطّطه لنفسه في جميع الشعر في مختارات ، وانه استغلّ هذا الانقطاع للتفرغ لهذا العمل بدلاً من نظم الشعر والوقوف به على أبواب الممدوحين . رجع أبو تمام الى اصبهان ومنها الى سُرّ من رأى ، وأخذ يتغنى بانتصارات القواد على بابك الخرمي الذي دوّخ الدولة منذ سنة ٢٠١ للهجرة ، ونازله رجال كثيرون ، وأخيراً قبض على الأفشين في اوائل سنة ٢٢٣ للهجرة ، وهو من اكبر قواد المعتصم ، وجاء به مقيداً الى سُر مَن رأى وفيها صُلِبَ جزاء بغيه وخروجه على الدولة . وأخذ الشعراء وفي مقدمتهم أبو تمام يباركون للخليفة بهذا النصر يقول من قصيدة بهذا الظفر :(٤٢٦)

فتـوحُ أمـير المؤمـنين تفتّحـتْ لـهنّ أزاهـيرُ الرُبـا والخمائـل

وعادتْ نصرٍ لم تزلْ تستعيدُها عصابةُ حقّ في عصابةِ باطل

فهذا دواءُ الداء من كل عالمٍ وهذا دواء مـن كـلّ جاهـل

وحينما أغار تيوفيل إمبراطور بيزنطة على مدينة « زبطرة » ونكّل بأهلها وسبى نساءها ، نهض المعتصم على نداء الهاشمية الأسيرة : وامعتصماه ! وهتف لبيك لبيك . وخرج بنفسه يدوس ديار هذا الامبراطور الى أن وصل الى عموريّة ، وكان يحميها تسعون ألفا من الروم ، فحاصرها ، ثم انقضّ عليها وفتحها ، وكسر أنوف المتجبرين المعتدين ، وأخذ للتذكار باباً حديدياً عظيماً من أبواب هذه المدينة

---

(٤٢٤) ينظر بحثنا (نظرة في حماسة أبي تمام) مجلة بين النهرين ، العدد ٢٧ لسنة ١٩٧٩ .

(٤٢٥) الموازنة ص ٥١ .

(٤٢٦) ديوانه ٣ : ٨٦ .

وأحضره الى بغداد وقد رآه ابن الطقطقا فقال : « وهو الآن على أحد أبواب دار الخلافة يسمىٰ باب العامة »(٤٢٧) . وسجّل أبو تمام وقائع هذه المعركة في قصيدة تُعَدُّ من عيون الشعر العربي ، مطلعها :(٤٢٨)

السَّيف أصدق أنباءً من الكُتُبِ في حدّه الحدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

وأصبحت لأبي تمام مكانة لائقة ومتميزة عند الخليفة المعتصم وابنه أحمد ، وقويت علاقته بالوزراء والكتاب والقواد ولاسيما محمد بن عبدالملك الزيات الوزير الشاعر ، وكاتبه وكاتم سره الحسن بن وهب ، وحظي عند الجميع تقديراً واكراماً ومهاداة . وعندما خرج الأفشين عن طاعة الدولة وظهرت خيانته أمر المعتصم بسجنه ثم اعدامه ، ووقف أبو تمام فأنشد الخليفة قصيدة في غاية السبكِ والحبك مطلعها :(٤٢٩)

الحقُّ أبلجُ والسُّيوف عواري فحنارِ من أسد العرين حذارِ

وفي سنة ٢٢٧ للهجرة توفي الخليفة المعتصم ورحل الى بارئه وخلّفهُ ابنه الواثق ونظم أبو تمام بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :(٤٣٠)

مالدموع تروم كلّ مرام والجفنُ ثاكلُ هجعةٍ ومنام !
ياحُفرة المعصوم تربُكِ مُودَعٌ ماء الحياة وتأتل الاعدام
إنّ الصفائح منكِ قد نُضِدَتْ على مُلقىً عِظامٍ لو علمتِ عِظام !

وفي أوائل سنة ٢٢٩ للهجرة عُين أبو تمام على بريد الموصل وانتهى تطوافه ومرافقته للخليفة وحاشيته ، ولكنه لم يمكث طويلاً اذ فاجأه الموتُ سنة ٢٣١ للهجرة على أرجح الآراء ولم يتجاوز الأربعين الاّ قليلا ، ودفن في الموصل خارج الميدان على حافة الخندق(٤٣١) . ورثاه محبُّوه أمثال أبي عبادة البحتري ، وعلي بن الجهم ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وأبو الشيص ، وأحمد بن يحيى البلاذري ...

---

(٤٢٧) الفخري ص ٢٣٠

(٤٢٨) ديوانه ١ : ٤

(٤٢٩) ديوانه ٢ : ١٩٨ .

(٤٣٠) ديوانه ٢ : ٢٣٣ .

(٤٣١) وفيات الأعيان ٢ : ١٧ ، هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٩ .

صفاته :

كان أبو تمام شخصية مرموقة تملأ العين . قال أبو البركات الأنباري : « كان موصوفاً بالظَرف ، وحُسن الأخلاق ، وكرم النفس(١٣٢) . ومن أميز صفاته الذكاء الحاد والاحساس بالشيء قبل وقوعه . ذكر الصولي أنّ أبا تمام « إذا كلمه إنسان أجابه قبل انقضاء كلامه ، كأنّه كان على علم بما يقول فأعدّ جوابه »(١٣٣) . ويُروى أنه لما أنشد قصيدته في مدح محمد بن عبد الملك الزيات ومطلعها :

ديمةٌ سَمحةُ القيادِ سَكُوبُ مُستغيثٌ بها الثَرى المكروبُ

سمعها أحد الفلاسفة الجالسين وقال : « إنّ هذا الفتى يموت شاباً . فقيل له : ومن أين حكمتَ ؟ قال : رأيتُ فيه من الحدّة والذكاء والفطنة ، مع لطافة الحس وجودة الخاطر ، ماعلمتُ به أنّ النفس الروحانية تأكل من جسمه كما يأكل المهند من غمده »(١٣٤)

وكان أبو تمام حاضر البديهة ، سريع الإجابة والاقناع ، يتخلّص من المواقف الحرجة بذكاء ولباقة . من ذلك قصته حينما مدح أحمد بن المعتصم بسينيته المشهورة . وكان الفيلسوف الكندي حاضراً ، وانتهى الى قوله :

إقدامُ عمرٍو في سماحة حاتم في حلم أحنفَ في ذكاء إياس(١٣٥)

اعترض عليه الكندي وقال : الأميرُ فوق مَن وصفتَ . فأطرقَ قليلاً ثمّ رفع رأسه وأنشد :

لاتنكروا ضربي له مَنْ دونَهُ مثلاً شروداً في الندى والباسِ
فالله قد ضرب الاقلَّ لنوره مثلاً من المشكاة والنبراسِ

ثم استمر في انشاده حتى أتم القصيدة ولَما أخذتْ من يده لم يجدوا بها البيتين ، فعجبوا من سرعة فطنته واهتز الأمير طرباً .(١٣٦)

---

(١٣٢) نزهة الالباء في طبقات الأدباء ص ١٠٨ .

(١٣٣) أخبار أبي تمام ص ٧٢ . وقيل القصيدة في مدح محمد بن الهيثم ، ينظر ديوانه ١ : ٢٩١ .

(١٣٤) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٤٠ ، شذرات الذهب ٢ : ٧٤ .

(١٣٥) هو عمرو بن معدي كرب ، وحاتم الطائي وإياس بن معاوية كان قاضياً في البصرة والاحنف بن قيس سيد قبيلة تميم .

(١٣٦) هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص ٢٥ ، وفيات الأعيان ٢ : ١٥ .

ومن صفات أبي تمام حبّ التجول والسير بلا ضجر ولا ملل من أجل الوصول الى المكان الذي عقد العزم على الذهاب إليه ، وقد صدق في قوله(٤٣٧) :

ما أبيضُ وَجْهَ المرء في طلب العُلَى حتى يسودَّ وجهُهُ في الجيد

والى جانب حُبّه للسفر ، كان كريماً سخياً مسرفاً ، يحبُّ أطاليب الحياة غير أنه لم يكن متهتكاً ، بل كان يأتي ملذاته في ستر(٤٣٨) .

ثم مزية أخرى لأبي تمام أنه كان كثير النظر في الكتب والحفظ ، قال محمد بن قدامة : « دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ماغرق فيه فما يكاد يرى ، فوقفتُ ساعة لايعلم بمكاني لما هو فيه ، ثم رفع رأسه فنظر الي وسلّم عليّ فقلتُ له : يأبا تمام إنك لتنظر في الكتب كثيراً وتدمن الدرس فما أصبرك عليها ! فقال : والله مالي الفٌ غيرها ولا لذةَ سواها .(٤٣٩) والى جانب هذه القراءة كان يستظهرُ شعراً كثيراً وقد « قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع »(٤٤٠) .

شعره :

لانظن دارساً للأدب العربي لايعرف الى أي مدًى سار أبو تمام بالشعر نحو التطور والتجديد ، وكيف حرّك النقاد ـ قديماً وحديثاً ـ الى دراسة شعره واطلاق الأحكام المتباينة فيه ، فهو شاعر امتاز بالثقافة الواسعة ، والذكاء الحاد ، والحفظ الغزير للشعر العربي الموروث ، قال المبرد : سمعت الحسن بن رجاء يقول : « مارأيت أحداً قطّ أعلم بجيد الشعر قديمه وحديثه من أبي تمام(٤٤١) » وعدَّهُ محمد بن عبد الملك الزيات « أشعر الناس طرّاً »(٤٤٢) ، وقال الشاعر عمارة بن عقيل حينما قدم الى بغداد وسمعهُ الناسُ شعراً لأبي تمام وحكّمه فيه : « لئن كان الشعر بجودة اللفظ ، وحسن المعاني ، واطراد المراد ، واتساق الكلام ، فانَّ صاحبكم هذا أشعر الناس »(٤٤٣) . وقال الزمخشري : « وهو وإن كان مُحدثاً لايُستشهدُ بشعره

---

(٤٣٧) ديوانه ٤ : ٨ ـ ٥ .

(٤٣٨) أخبار الشيعة ١٩ : ١٩ وما بعدها ، وأبو تمام للدكتور عمر فروخ ص ٣٩

(٤٣٩) طبقات الشعراء ص ٢٨٤ .

(٤٤٠) وفيات الأعيان ٢ : ١٢ .

(٤٤١) شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١ : ١٤ .

(٤٤٢) الأغاني ١٦ : ٣٨٤ .

(٤٤٣) الأغاني ١٦ : ٣٨٥ .

في اللغة . فهو من علماء العربية . فأجعل مايقوله بمنزلة مايرويه »(٤٤٤) . وإنّ أردنا أن نجمع ماقيل في أبي تمام وشعره ومختاراته ابتداءً من الصولي في كتابه « اخبار أبي تمام » ومروراً بمن ترجم له الى وقتنا الحاضر لوجدنا الشيء الكثير العلي، بالاطراء والاعجاب والثناء .

تناول أبو تمام معظم موضوعات الشعر المعروفة وبرع فيها إلاّ الهجاء فقد قَصَّرَ بهما وأكثرُ شعره في فنيي المديح والرثاء . فهما يُشكّلان أكثر من ثلثي الديوان . وقد اشتهر بها حتى قيل : أبو تمام مذاحة نوّاحة .

لقد صبَّ جلَّ طاقته الشعرية في اجادة المديح لأنه الموضع الذي يمتحن به الشاعر ثم يُجاز عليه . وما أكثر المواقف التي نجح فيها . وفاز بالجوائز السنية والهدايا الثمينة . واحدى هذه المواقف أنه حضر مجلس أبي دُلف القاسم بن يحيى العِجلي وكان كريماً سرياً جواداً . وأنشده قصيدته :

على مثلها مِن أربع ملاعب أذيلتْ مصونات الدُّموع السواكب

فلما بلغ الى قوله :

اذا افتخرتْ يوماً تميمٌ بقوسها وازادت على ما وطّدت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالتْ سُيوفكمْ عروشَ الذي استرهنوا قوس حاجب(٤٤٥)
محاسنُ من مجدٍ متى تقْرنُوا بها محاسنَ أقوامٍ تكن كالمعايب

فقال أبو دلف : « يامعشر ربيعة . ما مدحتُم بمثل هذا الشعر قطّ . فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم يرمون بها إليه . فقال أبو دُلف : قد قبلها وأعاركم لبسها . وسأنوب عنكم في ثوابه . تمِّم القصيدة يا أبا تمام . فتممها فأمر له بخمسين ألف درهم . وقال : والله ماهي بازاء استحقاقك وقدرك . فاعذرنا . فشكره وقام ليقبل يده . فحلف ألا يفعل »(٤٤٦)

إنّ أبا تمام يعرف كيف ينفذُ الى قلوب الممدوحين ويداعبُها عن طريق مايُعجبهم . إضافة الى مقدرته العالية في اختيار ألفاظ رصينة منظومة كاللؤلؤ في سلك ذهبي متين جميل كما لاحظنا في القصيدة السابقة وقد بدأها بمقدمه طللية

---

(٤٤٤) الكفاف ١ : ٢٢٠ .

(٤٤٥) يوم ذي قار : هو أول يوم انتصر فيه العرب على العجم . وتنظر قصة قوس حاجب بن زرارة في شرح التبريزي على ديوان أبي تمام ١ : ٢٠٨

(٤٤٦) الأغاني ١٦ : ٣٨٩ .

وهذا مانجده بكثرة في قصائده المدحية . وقد يبدأ بوصف صاحبته ومعاناته في هواها ثم يعود الى ذكر ديارها . وبعدها يخلص الى ممدوحة مثل قصيدته في مدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد . يقول في أبياتها الأولى :(٤٤٧)

أرأيت أيّ سوالف وخدود ... عنّتْ لنا بينَ اللّوى فزرود
أترابُ غافلة الليالي ألّفتْ ... عُقَدَ الهوى في بارق وعقود(٤٤٨)
بيضاءُ يصرعُها الصّبا من نعمة ... خَوْدٌ كخوط البانة الأملود(٤٤٩)
مالي بربع منهمُ معهود ... إلاّ الأسى وعزيمةُ المجلود

ويذكر ناقته وماتعاني من تعب ومشقة . ثم يصف كيف تحط رحالها في رحاب الممدوح فتجد أمناً وراحة وطمأنينة :

هيهاتَ منها روضةٌ محمودةٌ ... حتى تُناخَ بأحمدالمحمود
بمعرّس الغرب الذي وجدتْ فيه ... أمن المروءة ونجدة المنجود

إنّ ابا تمام يعنى عنايةً فائقةً بمقدمته المدحية . وكثيراً مايلتفتُ فيها الى نفسه . فيصف همومه وآلامه . وقد يودعها حكماً وتأملاتٍ تدلّ على نظر عميق وفكر دقيق . وهو عندما ينتقل من هذه المقدمة يُحكم الربطَ بينها وبين الموضوع الأساس وهو المديح كي لايشعر القارئ أو السامع بفجوة أو عثرة . حينما يرفعُ من شأن الممدوح . ويُشهرُ مناقبه ويُظهرُمناسبه .. وقد يُطيل في استهلاله قبل التخلّص الى المدح . كما نلاحظ ـ مثلاً ـ في قصيدته التي مدح بها الخليفة المعتصم وأولها :(٤٥٠)

رقّتْ حواشي الدّهرِ فهي تمرمرُ ... وغدا الثّرى في خلْيه يتكسّرُ

فهو يصف الطبيعة في لوحة جميلة جذّابة في أكثر من عشرين بيتاً . يأتي فيها على مباهج هذه الطبيعةوما فيها من مناظر جذّابة . ولاسيما في زمن الربيع الذي تخضرُّ فيه المروج في حُلّةٍ بديعة . وتتفع الزهور بألوانها الزاهية . ثم يربط بين

---

(٤٤٧) ديوانه ١ : ٣٨٤ .
(٤٤٨) غافلة الليالي : ناعمة البال . ألفت عقد الهوى : جمعت الهوى بما لاح من حسنها
البارق : السوار .
(٤٤٩) الخود : الحسنة الخلق الشابة الناعمة . الخوط : القضن . الأملود : الأملس الناعم .
(٤٥٠) ديوانه ٢ : ١٩١ .
(٤٥١) تمرمر : تموج وتضطرب ليناً ونعمة .

هذه المقدمة الظريفة التي تفتح النفوس وتسرُّها مع خُلُقِ الخليفة العظيم الذي عمَّ البريَّة بعدله ولطفه وكرمه :

خُلُقٌ أطلُّ من الربيع كأنَّهُ ... خُلُقُ الامامِ وهَدْيُهُ المتيسِّرُ
في الأرضِ من عدلِ الإمامِ وجودِهِ ... ومن النَّباتِ الغضِّ سَرْجٌ تَزْهَرُ
تُنسي الرِّياضُ وما يُروِّضُ فعلُهُ ... أبداً على مرِّ اللَّيالي يُذكرُ

واشتهر أبو تمام بالرثاء كاشتهاره في المديح . قال ابن رشيق : « هو من المعدودين في إجادة الرثاء »(٤٥٢) . وقال الآمدي : « هو أشعر الناس في المراثي »(٤٥٣) . لقد كانت مراثية رائعة وكأنّها أناشيد حربية ولاسيما ماقاله في القائد محمد بن حُميد الطائي الذي استشهد في ساحة الوغى ولم يكن عجباً أنْ يطلب أبو دُلف العجلي من أبي تمام أن ينشدهُ قصيدته الرائية (كذا فليجل الخطب ...) في رثاء هذا القائد . ومنها :

وما ماتَ حتى ماتَ مَضْرِبُ سيفِهِ ... مِنَ الضَّربِ واعتلَّتْ عليه القنا السُّمْرُ
وقد كان فوتُ الموتِ سهلاً فردَّهُ ... إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُقُ الوعرُ
فأثبتَ في مستنقعِ الموتِ رجلَهُ ... وقال لها من تحتِ أخصمكِ البحرُ
غداةَ غدوةٌ والحمدُ نسجُ ردائِه ... فلم ينصرفْ إلاَّ وأكفانُه الأجرُ

فقال له : « واللّه لوددتُ أنّها فيَّ . فقال : بل أفدي الأمير بأهلي . وأكونُ المقدم . فقال : إنه لم يمت من رُثي بهذا الشعر »(٤٥٤)

إنّه كان يُحسن إظهار التفجّع والتحسّر والألم على الفقيد . وخسارة الأمة فيه . ويجيد « خلق الجو الحزين المتلائم مع طبيعة الكارثة وظروف المأساة . ثم يُلقي بثقلهِ وفكره على بحار المعاني فيصيد نفائسها ويصقلها ويُطرّزها ويُقدّمها لجمهرة الناس أحسن ما تكون صوغاً وأجمل ماتكون ثوباً »(٤٥٥) . ومن جميل مراثيه التي أجاد فيها قوله في رثاء القائد جعفر الطائي :(٤٥٦)

---

(٤٥٢) العمدة ٢ : ١٥ .
(٤٥٣) خاص الخاص للثعالبي ص ١٢١ .
(٤٥٤) الأغاني ١٦ : ٣٩ .
(٤٥٥) الشعر والشعراء للدكتور مصطفى الشكعة ص ٦٧٤
(٤٥٦) ديوانه ٤ : ١٣٨ .

رَحِمَ اللهُ جعفراً فلقد كان أبياً شهماً وكان رحيما
مُثِّلَ الموتُ بينَ عينيه والذُّ لَّ فكلاً رآه خطباً عظيما
ثم سارتْ به الحميّة قُدْماً فأماتَ العِدَى ومات كريما!

أما الاغراض الاخرى فلم يكن مكثراً فيها . فله شعر رقيق في العتاب ولاسيما في أولئك الذين مدحهم وقد تأخر رفدهم . مثل قوله يخاطب أبا دُلف :(٤٥٧)

أبا دُلف لم يبقَ طالبُ حاجةٍ من الناسِ غيري والمحلُّ جديبُ
يسُرك أنّ أبْتُ عنك مخيباً ولم يُرَخْلَقْ من جداكَ يخيبُ ؟ !

وأحياناً ينقلبُ هاجياً . وهو فيه أدنى مرتبة من سائر شعره . إذ تبدو لغته الشعرية في هذا اللون باردة لارواة فيها ولاجمال . ويظهر أنه لم يكن يُحسن لغة السباب والشتائم التي درج عليها بعض شعراء العصر العباسي . مثل قوله في هجاء عبدالله بن يزيد الكاتب :(٤٥٨)

ما أنتَ إلا المثلُ السائرُ يعرفُه الجاهلُ والنخابرْ
فاكهةُ ضُيِّعَ بستانُها فانتابها الواردُ والصادرْ

وقوله في عيّاش بن لهيعة :(٤٥٩)

سَمُجتْ بكَ الدُنيا فمالكَ حامدٌ وسمجتَ بالدُنيا فمالكَ حامدُ

ولم يُعرفْ أبو تمام بحبيبةٍ معينةٍ غازلها . وعانى فيها شوقاً وصبابةً . ومع ذلك نجد له غزلاً في مطامع القصائد المدحية . أو مقطوعات مستقلّة . مثل قوله الجميل الذي يستهوي المرء سماعه :(٤٦٠)

نَقْلْ فؤادكَ حيثُ شئت من الهوى ما الحبُّ إلاّ للحبيب الأولِ
كم منزل في الأرضِ يألفه الفتى وحنينُه أبداً لأوّلِ منزلِ

كان أبو تمام يحسن اختيار أبياته التي تجري مجرى الأمثال والحكم . سواء كان في أثناء المديح والرثاء أم في الأغراض الأخرى . مثل قوله :(٤٦١)

---

(٤٥٧) ديوانه ٤ : ٤٤٣ .
(٤٥٨) ديوانه ٤ : ٣٥٢ .
(٤٥٩) ديوانه ٤ : ٣٤٧ .
(٤٦٠) ديوانه ٤ : ٣٥٣ .
(٤٦١) ديوانه ١ : ٣٩٧ .

واذا أرادَ اللهُ نشرَ فضيلةٍ طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حسودِ
لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ما كان يعرفُ طيبُ عَرفِ العُودِ

ومن حكمه التي راقت الجاحظ وأعجبته . وعدّها تصلح للرواية والمذاكرة قوله في البيتين الآتيتين اللذين يدعو فيهما الى الارتحال والتنقل لأن الانسان بحاجة الى تجديد النشاط والحيوية ورؤية عوالم جديدة :(٤٦٢)

وطولُ مقامِ المرءِ في الحيِّ مخلقٌ لديباجتيهِ فاغتربْ تتجددِ
فاني رأيتُ الشمسَ زيدت محبةً الى الناس ان ليستْ عليهم بسرمدِ

خصائص شعره :

أبو تمام شاعر مثقف وذكي . استوعب علوم عصره . وأحاط بها . واستقصاها . واستخلص منها زبدتها ووظفها في شعره توظيفاً اختلف الدارسون والنقاد فيه . فمنهم مَن صار معه ومنهم من صار عليه . وقد لاحظ أبو الفرج الاصبهاني ذلك فقال : «وفي عصرنا هذا من يتعصب له فيفرطُ . حتى يفضله على كلّ سالفٍ وخالفٍ . وأقوام يتعمدون الرديء من شعره فينشرونه . ويطوون محاسنه »(٤٦٣) . ومن أبرز الأمور التي اخذوها عليه في شعره الصنعة البديعية . والصنعة المعنوية او الاختراع . والاغراب والتعمد في اختيار الالفاظ المبهمة والصعبة .

لقد عمد كثير من الشعراء الى الإستعانة بالبديع . ولاسيما الجناس والطباق والمقابلة والتلميح ومراعاة النظير ... والاكثار من التشبيهات والاستعارات والكنايات . وأولهم مسلم بن الوليد ثم تبعه ابو تمام .(٤٦٤) وفاقه وأربى عليه حتى « صار فيه اولاً واماماً متبوعاً . وشهر به حتى قيل : هذا مذهب ابي تمام » .(٤٦٥) وقد اشار بنفسه الى هذا المذهب فقال :(٤٦٦)

ان الجيادَ اذا علتها صنعةٌ راقت ذوي الآداب والافهامِ
لتزينُ الأبصار فيها فسحةٌ وتأملاً باشارة العوامِ

(٤٦٢) ديوانه ٢ : ٣٣ ، البيان والتبيين ٢ : ١٨٧
(٤٦٣) الاغاني ١٦ : ٣٨٣
(٤٦٤) تنظر : الصورة الفنية في شعر أبي تمام ص ١٤٣ ـ ١٨٤ .
(٤٦٥) الوساطة ص ١٦ .
(٤٦٦) ديوانه ٢ : ٢٨١ .

ان النقاد تتبعوا شعره . ونظروا فيه بدقة . وانكروا عليه اموراً جمة . والشواهد عليها كثيرة . تأخذ منها قوله :(٤٦٧)

لاتسقني ماءَ الملام فإنّني صبٌّ قد استعذبت ماء بكائي

قالوا : « اذا كان ماء الملام هو ماء بكائه فكيف يكون مستعفياً منه . مستعذباً له »(٤٦٨) وقد ردهم الآمدي بقوله : « ليس قول ابي تمام ـ لاتسقني ماء الملام ـ بعيب عندي . لأنه لما أراد ان يقول ـ قد استعذبت ماء بكائي جعل للملام ماءً ليقابل ماءً بماء . وان لم يكن للملام ماء على الحقيقة . فان الله جلّ اسمه يقول . (وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها) ومعلوم ان الثانية ليست بسيئة وانما هي جزاء على السيئة . وكذلك : (ان تسخروا منّا فانا نسخر منكم) والفعل الثاني ليس بسخرية . ومثل هذا في الشعر والكلام كثير ومستعمل . فلما كان في مجرى العادة ان يقول القائل : أغلضتُ لفلانٍ القولَ . وجرّعته منه كأساً مرّةً . أو سقيته منه أمرّ من العلقم . وكان الملام مما يستعمل فيه التجرّع . جعل له ماءً على الاستعارة . وهذا كثير موجود »(٤٦٩)

ولم يكتف أبو تمام بالبديع وصور البيان . بل كان يعمد أيضاً الى الافكار . ويتعمق فيها . ويستبط منها الواناً يرتاح لها العقل . وقد أثنى عليه ابو العلاء المعري في هذا الشيء . فقال : « كان صاحب طريقة مبتدعة . ومعانٍ كاللؤلؤ متتبعة . يستخرجها من غامضِ البحار . ويفضُّ عنها المستغلق من المحار » .(٤٧٠) ومن أمثلة هذه الطريقة المبتدعة قوله في مدح الحسن بن رجاء :(٤٧١)

لاتنكري عطلَ الكريم من الغنى فالسيلُ حرب للمكان العالي
وتنظري خببَ الركابِ ينصُّها محيي القريض الى مميت المالِ

وقوله في مدح أبي دُلف العجلي :(٤٧٢)

تكادُ عطاياه يجنُّ جنونها اذا لم يعوذها بنغمةِ طالبِ
تكاد مغانيه تهشُّ عراصُها فتركبُ من شوق الى كل راكبِ

---

(٤٦٧) ديوانه ١ : ٢٢ .
(٤٦٨) سر الفصاحة ص ١٣١ .
(٤٦٩) نفسه ص ١٣٣ .
(٤٧٠) رسائل الغفران ص ٤٨٨
(٤٧١) ديوانه ٢ : ٧٧
(٤٧٢) ديوانه ٢ : ٢٠٤

وتتصل بالمزية السابقة مزيةٌ أخرى هي التعقيد اللفظي والميل الى الغريب من المعاني ، وقد وصف شعره بقوله :(٤٧٣)

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنّما هي في العيونِ كواكبُ
وغرائـــبٌ تأتـــيـــك الاّ أنـــها لصنيعك الحسنِ الجميلِ أقاربُ

ولمس عل بن عبدالعزيز الجرجاني هذه الصفة في شعره فقال انه « تعسّفَ ما أمكن ، وتغلغل في التصعب كيف قدر ، ثم لم يرض بذلك حتى أضاف اليه طلب البديع ، فتحمله من كل وجه ، وتوصل اليه بكل سبب ، ولم يرض بهاتين الخليتين حتى اجتلب المعاني الغامضة ، وقصد الاغراض الخفية ، فاحتمل فيها كل غثٍ ثقيل ، وأرصد لها الافكار بكلّ سبيل ، فصار هذا الجنس من شعره اذا فرع السمعَ لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر ، وكدّ الخاطر ، والحمل على القريحة »(٤٧٦) فمن اغرابه قوله :(٤٧٥)

وركبٍ يساقون الركاب زجاجةً من السير لم تقصد لها كفُّ قاطبِ
فقد أكلوا منها الغوارب بالسُّرى فصارت لها أشباحُهم كالغوارب(٤٧٦)

لاغرو ان ظهر مثل هذا التصعيب في شعره ، فانه كان يقتسر المعنى البعيد أو الاستعارة التي يتخيلها ، ولا يبالي بما يأتيه من نقد . فقد سأله ابو العميثل اللغوي ، لمَ تقول مالا يفهم ؟ فأجابه على الفور ، ولمَ لا تفهم ما يقال ؟(٤٧٧) وهذا الامر دفع الناقد العباسي المشهور علي بن عبدالعزيز الجرجاني الى القول ، ان ديوانه مشحون بالغموض والتعقيد .(٤٧٨)

ومهما قيل في أبي تمام .(٤٧٩) . فانه يبقى ذلك الشاعر العربي الكبير الذي يشنّفُ الاسماعَ بأقوى الشعر وأجزله . وقد صدق ابن رشيق حين قال : « انما سمي

---

(٤٧٣) ديوانه ١ : ١٧٤ .
(٤٧٤) الوساطة ص ١٩
(٤٧٥) ديوانه ١ : ٢٠١
(٤٧٦) جعل ابو تمام السير خمراً صرفاً ، يديرها الركبان بينهم فتورثهم شدة في سيرهم من غير تفكير بمآل ، ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها ، وكان السير الكثير ايضاً قد انحلهم هم انفسهم فاصبحت اجسامهم النحيلة كأنها هي سنام الابل ..
(٤٧٧) اخبار ابي تمام ص ٧٢ .
(٤٧٨) الوساطة ص ٤٨٩ .
(٤٧٩) تنظر : الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ١ : ١٤٤ ـ ٢٤٨ ، ٣٤٩ ـ ٥٥٧ .

الشاعر شاعراً ؟ لانه يشعر بما لايشعر به غيره . فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه . او استظراف لفظ وابتداعه . او زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني . أو نقص مما اطاله سواه من الالفاظ . أو صرف معنى الى وجه عن وجه اخر . كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة . ولم يكن له الا فضل الوزن »(٤٨٠)

---

(٤٨٠) العمدة ١ : ١١٦ .